المحاضرة 11

النظريات الأنتروبولوجية المعاصرة

أولا: النسبية الثقافية Relativism Culturel

لا يمكننا كذلك أن نؤكد على الخدمة الهامة التي قدمها الاتجاه الانتشاري ، من خلال إبرازه و تأكيده على فكرة تعدد الثقافات و تنوعها ، فكان بمثابة الممهد و الدعامة الرئيسية لنشوء و نمو فكرة النسبية الثقافية و التي أصبحت لها مكانة ووزنا معتبرا في الفكر الأنثربولوجي في الولايات المتحدة الأمريكية خصوصا و خارجها عموما .

و كان المناخ العلمي الطبيعي قد أسهم في دعم و قبول فكرة النسبية الثقافية ، و تحديدا اكتشافات العالم الفيزيائي "إينشتاين" و توصله إلى النظرية النسبية و ما أحدثته هذه الأخيرة في الاستخدامات العلمية التطبيقية من تأثيرات هائلة .

و كان الأنثربولوجي"مالينوفسكي"في هذا السياق، و من خلال مقدمة كتابه " المغامرون" قد ندد بالأحكام المسبقة و الصور المنمطة التي كونها المستعمرون عن الأهالي إذ حكموا عليهم بالبلادة و الكسل ، و أن تصرفاتهم و سلوكاتهم تتناقض مع مقتضيات العقل و بالتالي فهم لا يملكون مقومات التقدم كما هاجم "مالينوفسكي"الإستعمار و الإداريين و حملهم مسؤولية المس بالعادات و المعتقدات التقليدية التي يدين بها الأهالي الأصليون ، و أشار إلى أنه يستوجب على الباحث الأنثربولوجي أن يتناسى كل مراجعه الثقافية ، و أن يفسرها وفقا للمنطق الخاص الذي تعتمده الثقافة الواحدة و هو منطق يفترض بالباحث أن يكتشفه من داخل الثقافة نفسها.[1]

فمن منظور النسبوية الثقافية :" أن نأخذ كل ثقافة على أنها وحدة وظيفية، و بمقدار ما نرفض أن نضعها من جديد على سلم للتقدم و أن نحكم عليها دائما بالمقارنة مع تلك الثقافات التي تفترض أنها تقع في منزلة أعلى أو أدنى منها، و لاسيما بالمقارنة مع المقياس المثالي الذي تمثله الحضارة التي نزعم أنها قمة التطور، نكون مجبرين على التعرف إلى الاستقلالية النوعية لكل كيان ، و على إعطائه روحا خاصة به لا يمكن الحكم عليها بحسب قوالب خارجية ، و على القبول تاليا بأن تنوع الثقافات هو أمر لا يمكن تبسيطه ، و مع تقدمه بالعمر ، أخذ بواس يظهر مزيدا من التشكيك في هذا الميدان لدرجة أنه نفى أية إمكانية مقارنة و تعميم "[2].

و من رواد هذا الاتجاه نجد الباحثة الأنثربولوجية**"روث بنديكت** **Ruth** Benedict" و التي تأكد السمة الأحادية نوعا ما في كل عالم ثقافي، كما كانت الباحثة الأمريكية **"مرغريت ميد** Margaret Mead"(1901-1978) من أبرز و أشهر

---

[1] – جاك لومبار: مدخل إلى الاثنولوجيا،ترجمة:حسن قبيسي، ط1،المركز الثقافي العربي،الدار البيضاء، المغرب،1997 .

[2] – بيار إيريي: اتنولوجيا التربية، ترجمة: عدنان الأمين،معهد الإنماء العربي،بيروت،1992 .

الانثربولوجيين الأمركيين التي دافعت عن الثقافات الأخرى خارج نطاق الثقافة الغربية، وكان كليفورد غيرتز من الذين يؤكدون نسبية كل ثقافة و أن محاولات الوصول إلى الأنموذج الثقافي العالمي قد لا تكون ممكنة إطلاقا.

ثانيا: المادية الثقافية :" الأيكولوجيا الثقافية"

ظهر مفهوم الأيكولوجيا لأول مرة عام 1869 من خلال اعمال الألماني أرنست هايكل ERNISST Haekel وذلك ضمن دراسته للعلاقة بين البيئة والكائنات العضوية، وقبل هذا التاريخ وان أردنا البحث عن الأفكار الأولى لموضوع البيئة أو الأيكولوجيا وعلاقتها بالإنسان وعلاقة هذا الأخير بالبيئة وما الأثر الحاصل عن هذه العلاقة، فإننا نجده في كتابات وأبحاث أصحاب الاتجاه الحتمي منذ مرحلة التفكير الفلسفي الى مرحلة الدراسات السوسيولوجية والأنثروبولوجية والدراسات الاقتصادية لاحقا، والتي من خلالها اتضحت الأسس النظرية والطرق المنهجية في مجال الايكولوجيا بصفة أكثر وضوحا ودقة وشمولا.

وسمي أصحاب نظرية الأيكولوجيا أو النظرية المادية الثقافية بالماديين والسبب في ذلك أنهم ينظرون للموارد المادية بالبيئة على أنها العامل الرئيسي الذي تتشكل بموجبه الثقافة لدى الإنسان، وبالتالي فالأنثروبولوجيون في هذا المضمار يرون تشكل الثقافة لدى الانسان يتولد من الطرق والأساليب التي ينتهجها الأفراد في تعاملهم مع البيئة التي يعيشون فيها لتحقيق احتياجاتهم.

ومن أبرز الأسس التي تقوم عليها النظرية الأيكولوجية أو المادية الثقافية نجد:

- التركيز على دراسة العلاقة الحركية الدائمة بين الإنسان والنسق الأيكولوجي أو المكونات البيئة التي يحيا بمقتضاها.
- دراسة عمليات التكيف التي يقوم بها الإنسان في تعامله مع المكونات البيئية مما يؤدي إلى انتاج وظهور صيغ ثقافية جديدة. Nouvelles formules culturelles
- تتبع أثر البيئة الجغرافية في تشكل وتطور الثقافة لدى الإنسان.
- تفسير التنوع الثقافي الهائل بين الشعوب بالاختلاف البيئي ، وكيف يؤثر العامل الثقافي في عمليات التكيف لدى الأفراد خصوصا أوقات حدوث تغيرات عميقة وجذرية.

ثالثا: النظرية المعرفية:

يمكننا القول أن بروز الاتجاه المعرفي قد كان بعد جملة الانتقادات التي وجهت إلى الاتجاه البنائي الوظيفي، وفي هذا المضمار يبرز الباحث الأنثروبولوجي العربي أحمد أبوزيد جملة الانتقادات التي تم توجيهها للبنائية الوظيفية، فيرى أنه من العبث الاكتفاء بملاحظة سلوك الأفراد وتتبع علاقاتهم الظاهرة، أو الواقعية في المجتمع، لاستخلاص صور بنائية راسخة وثابتة عن هذه العلاقات ومظاهر السلوك والنظم، لأن مثل هذا النوع من التحليل هو – في أفضل حالاته- مجرد

انعكاس لما يتصوره الباحث نفسه عن المجتمع، أو لما يدركه الناس أنفسهم عن واقعهم الاجتماعي أو لما يتصورونه عن هذه العلاقات والأوضاع والنظم والقيم.

وعموما فالنظرية المعرفية لا تهتم بروح الثقافة في المجتمع، وإنما تنطلق من فكرة أن الثقافة هي ظاهرة عقلية، مما يستلزم التركيز على الجانب الفكري العقلي، فالثقافة شبيهة بالنسق العقلي الذي يزود الأفراد بانتهاج السلوك الثقافي الملائم، إنها شبيهة بتنظيمات معرفية للظواهر المادية، والهدف الرئيسي للأنثروبولوجيا المعرفية هو التوصل إلى تحديد ومعرفة المبادئ الكامنة خلف تنظيم الثقافة في العقل. فالثقافة تتألف من جهاز منطقي يؤدي وظيفة ترتيب وتنظيم الظواهر المادية، وبالتالي تهتم الأنتروبولوجيا المعرفية بالتركيز على المبادئ المنطقية للثقافة دون الاهتمام بالظواهر المادية.

رابعا: <u>الأنثروبولوجيا الرمزية :</u>

تنطلق الانثروبولوجيا الرمزية من دراسة الثقافات بوصفها معضلة تفسيرية في المقام الأول. وحسب تعبير جيرتز .. فان الانسانية تتدلى في خيوط الدلالة فوظيفة الانثروبولوجيا هي تفسير واكتشاف الرموز المتراكمة والمتجسدة لمختلف البشر، بحثا عن المعنى والارتباطات الكامنة والعميقة، وذلك خلافا لما تقدمه الأثنوجرافيا الوضعية من دليل سطحي. ويركز كليفورد جيرتز C .Geertz، اهم اعلام هذه المدرسة، على الثقافات بوصفها نصوصا، وقراءتها بعمق. وتعتمد الانثروبولوجيا التفسيرية على البحث في الدلالة والمعنى وليست القوانين العامة للوجود الاجتماعي والثقافي. فهي لا تتعرف بأن الانثروبولوجيا علم تجريبي وإنما هو علم تفسيري يهدف إلى تكوين دلالات هرمية، اي تحديد السياق الذي يمكن في ضوئه وصف الاحداث الاجتماعية والسلوك والمؤسسات والعمليات هذا الجهد التفسيري يسعى إلى ما يسميه جيرتر الوصف المكثف THICK DESCIPTION الذي يركز على تدفق أو تتابع الخطاب الاجتماعي. فالتفسير هنا يبدأ من محاولة الكشف عن دلالة الحدث الكلامي وتحريره من سياقاته المضعفة أو ظروفه ومناسباته المضعفة.3

[3]– السعيد صابر المصري: الأنثروبولوجيا النقدية والتحولات النظرية والمنهجية، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة القاهرة، 1992.